إعجاز القرآن الكريم (١)

عادل الاديب

ما بين يدي القارئ الكريم هومن النتاجات الفكرية للاستاذ عادل الاديب الذي قدم و لايزال للمكتبة الاسلامية اعمالا قيمة منها كتاب الائمة الاثناعشر «پيشوايان ما، ترجمة اسدالله مبشري» الذي ترجم الى لغات عديدة كالفارسية والانكليزية و الفرنسية و الاردية. فنشكر الاستاذ لما بذله من جهد لتزويد المجلة بمقالة «اعجاز القرآن الكريم». علما ان المقالة تنشر في عددين متتابعين.

مدخل و تمهيد

قبل أن أبدأ البحث أود أن أمهد له بالملاحظة المهمة التالية:

لاينبغي للباحث، و هو يدرس القرآن الكريم أن يترقب من هذا الكتاب الالهي العظيم أن يتحدث لنا في مبادئ العلوم كالفلك والذرة و الحيوان و النبات والطب، أو سائر العلوم الطبيعية الأخرى ذلك لأثبات أعجاز القرآن من خلالها.

لأن القرآن الكريم لم ينزل على النبي(ص)، كتاب اكتشاف، بل هو كتاب هداية، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، من ظلمات الجاهلية إلى نور الهداية والاسلام.

و على ضوء هذه الحقيقة، يجب أن لانترقب من القرآن أن يكشف لنا الحقائق و المبادئ العامة للعلوم.

صحيح أن في القرآن الكريم إشارات علمية إلى كل ذلك ولكنها إشارات وومضات باالحدود التي تؤكد على البعد الالهي الإعجازي للقرآن، و بقدر مايمكن أن يتثبت العمق الرباني لهذا الكتاب الذي أحاط بالماضي والحاضر والمستقبل، والذي استطاع أن يسبق التجربة البشرية مئات السنين في مقام الكشف عن حقائق متفرقة في الميادين العلمية.

لكن كل هذه الإشارات العلمية المحدودة جاء ذكرها في القرآن ليس شيء من هذا القبيل، لا من أجل تعليم الفيزياء أو الكيمياء

فالقرآن الكريم لم يطرح نفسه بديلا عن قدرة الانسان الخلاقة عن مواهبه و قابلياته في مقام الكدح، الكدح العلمي في كل ميادين الحياة، بما في ذلك ميدان المعرفة القائمة على التجربة والحس.

القرآن الكريم لم يطرح نفسه بديلا عن هذه الميادين، و إنما طرح نفسه طاقة روحية موجهة للإنسان، و مغيرة له من الداخل و مفجرة طاقاته و محركة في المسار الصحيح.

فإذا كان القرآن الكريم كتاب هداية و توجيه، و ليس كتاب اكتشاف و علم، فليس من الطبيعي أن نترقب منه استعراض مبادئ عامة لأي واحد من هذه العلوم التي يقوم الفكر البشري بمهمة التوغل في اكتشاف نواميسها و قوانينها و ضوابطها.

ولاحرج على القرآن في أن لايكون له ذلك، لأن القرآن لو صار لمقام استعراض هذه القوانين، و كشف هذه الحقائق لكان بذلك يتحول الى كتاب آخر نوعياً، يتحول من كتاب للبشرية جمعاء الى كتاب للمتخصصين يدرس في الحلقات الخاصة.

و خلاصة القول: أن القرآن ليس كتاب اكتشاف للعلوم الطبيعية، و لم يطرح نفسه ليجمد في الانسان طاقات النمو و الابداع و البحث، و انما هو كتاب هداية و تغيير نحو الأحسن(١).

اثبات اعجاز القرآن من خلال منهج الدليل الاستقرائي القائم على حساب الاحتمالات:

لعله لأول مرة أقرأ لباحث اسلامي، وأعني به السيد الشهيد محمد باقر الصدر استخدامه للدليل العلمي الاستقرائي في اثبات اعجاز القرآن و الاستدلال على أن الرسالة المتمثلة بالقرآن هي رسالة الهية ولايمكن بالحساب العلمي ـ أن تكون ظاهرة بشرية

مرتبطة بشخص الرسول محمد(ص).

لذا قبل أن نشرع بالبحث علينا أن نوضح للقارئ العزيز و نحددمعاني المصطلحات التي سنستخد مها في معرض بحثنا هذا.

فماذا نقصد بالدليل العلمي ـ الاستقرائي ـ على اعجاز القرآن؟ الدليل العلمي، هو كل دليل يعتمد على الحس و التجربة، و يتبع منهج الدليل الاستقرائي القائم على حساب الاحتمالات.

و على ضوء هذا الدليل تكون المعرفة كما جاء في تعريف لها (لمنظمة اليونسكو) هو كل معلوم خضع للحس و التجربة.

فالمعرفة اذاً، كل معلوم يمكن أن يقام عليه الدليل على صحته من العقل و التجربة و الحس.

أما المعرفة التي تأتينا عن طريق الوحي الالهي يمكن أن نعرفها بالشكل التالي: الوحي هو معلومات قام الدليل على صحتها بالدليل العقلي من خلال التحدي لقوانين الطبيعة.

والاعجاز هو الدليل الحسي التجريبي على صحة القرآن و اعجازه و من ثم نسبته الى الله.

و قبل أن نخوض في الدليل العلمي ـ في اثبات اعجاز القرآن ـ علينا أن نشرح المنهج الاستقرائي و مامدى امكان الوثوق بهذا المنهج، والاعتماد عليه في اكتشاف الحقائق و التعرف على الأشياء.

لهذا سنقوم بتوضيح مسألتين في هذا المقام:

١ـ تحديد المنهج الذي سنتبعه في الاستدلال ثم توضيح خطواته و مراحله.

٢ـ تقييم هذا المنهج، من حيث امكان الوثوق به و ذلك على ضوء تطبيقاته العملية المعترف بها عموماً لكل انسان سوي ـ لذا سيتضح من خلال بحثنا أن المنهج الذي نعتمده في اثبات اعجاز القرآن، هو نفس المنهج الذي نعتمده في استدلالاتنا التي نثق بها كل الثقة.

في حياتنا اليومية الاعتيادية أو في البحوث العلمية التجريبية على السواء.

٢

ان الأسس المنطقية التي تقوم عليها كل الاستدلالات العلمية المستمدة من الملاحظة و التجربة، هي نفس الأسس المنطقية التي يقوم عليها الاستدلال على اثبات اعجاز القرآن و من ثم اثبات نبوة محمد(ص)، و لما كان الفصل الحديث لم يعد يألف الاستدلال التقليدي و أدواته المعروفة، الذي كان متداولاً بين المتكلمين فيما سبق، لأن ذلک الاستدلال كان مبنياً على منهج بعيد عن الحياة اليومية و ما تزخر به من استدلالات كثيرة يسوقها الانسان كل حين لاثبات العديد من الحقائق في سلوكه العام أو في تفكيره العلمي، فمسّت الحاجة الى أن يكون منهج الاستدلال على اعجاز القرآن، هو نفس المنهج الذي نستخدمه عادة لاثبات حقائق الحياة اليومية و الحقائق العلمية، فما دمنا نثق به لا ثبات هذه الحقائق (٣). فمن الضروري أن نثق به بصورة مماثلة لا ثبات اعجاز القرآن، الذي هو أساس تلک الحقائق جميعاً (۴).

«فالعلم والايمان مرتبطان في أساسهما المنطقي الاستقرائي،

ولايمكن من وجهة النظر المنطقية للاستقراء، الفصل بينهما».

«فأنت في حياتك الاعتيادية حين تتسلم رسالة بالبريد، فتتعرف بمجرد قراءتها على أنها من أخيك.

أو حينما تجد أن طبيباً ينجح في علاج حالات مرضية كثيرة، فتثق به وتتعرف على أنه طبيب حاذق.

و حين تستعمل ابرة بنسلين في عشر حالات مرضية، و تصاب فور استعمالها في كل مرة بأعراض معينة متشابهة، فتستنتج من ذلك أن في جسمك حساسية خاصة تجاه مادة البنسلين.

أنت في كل هذه الاستدلالات و أشباهها تستعمل في الحقيقة منهج الدليل الاستقرائي القائم على حساب الاحتمالات.

و العالم الطبيعي في بحثه العلمي، حينما لاحظ خصائص معينة في المجموعة الشمسية، فيتعرف في ضوئها على أنها كانت أجزاء من الشمس و انفصلت عنها.

فاذاً ماهو بالتحديد منهج الدليل الاستقرائي؟

يمكن تلخيص هذا المنهج بالخطوات التالية:

١ـ نواجه في مجال الحس و التجربة به ظواهر عديدة.

٢ـ ننتقل بعد ملاحظتها و تجميعها الى (مرحلة تفسيرها) من خلال فرض (نظرية) و فرضية صالحة لتفسير تلك الظواهر و تبريرها جميعاً، فاذا كانت ثابتة في الواقع، فهي بالضرورة تستبطن أو تتناسب مع وجود جميع تلك الظواهر، التي هي موجودة فعلاً.

٣ـ نلاحظ أن هذه الفرضية اذا لم تكن صحيحة و ثابتة في الواقع ففرصة تواجد تلك الظواهر كلها مجتمعة ضئيلة جداً، لأن هذه الفرصة بحاجة الى مجموعة كبيرة من الافتراضات، هذه المجموعة من الصدف العشوائية يعتبر احتمال وجودها ضئيلاً جداً ـ و كلما ازداد عدد هذه الصدف تضاءل الاحتمال أكثر فأكثر حتى يصل الى الصفر.

٤ـ نستخلص من ذلك أن الفرصة صادقة، و يكون دليلنا على صدقها وجود تلك الظواهر التي أحسسنا وجودها في الخطوة الأولى. و وجود كل هذه الظواهر غير محتمل الا بدرجة ضئيلة جداً، فمن المرجح بدرجة أحتمال كبيرة أن تكون الفرضية (المفترضة في الخطوة الثانية) صحيحة.

٥ـ أن درجة اثبات تلك الظواهر للفرضية المطروحة في الخطوة الثانية تتناسب عكسياً مع نسبة احتمال وجود تلك الظواهر جميعا الى احتمال عدمها (أو عدم واحد منها على الأقل)، على افتراض كذب الفرضية، فكلما كانت هذه النسبة أقل كانت درجة الاثبات أكبر، حتى تبلغ في حالات اعتيادية كثيرة الى درجة اليقين الكامل لصحة الفرضية».

هذه هي الخطوات التي نتبعها عادة في استدلال استقرائي يقوم على أساس حساب الاحتمال، سواءً في مجال الحياة الاعتيادية، أو على صعيد البحث العلمي أو في مجال الاستدلال المقبل على اعجاز القرآن.

تقييم المنهج:

و لنقيم هذا المنهج من خلال التطبيقات و سنبدأ بمثال من حياتنا الاعتيادية.

أولاً: مثال من الحياة اليومية للانسان:

ذكرنا سابقاً: أنك حين تتسلم رسالة بالبريد و تقرأها فتتعرف على أنها من أخيك ـ لا من شخص آخر فمن يرغب في مراسلتك ـ فإنك تمارس بذلك استدلالا استقرائياً قائماً على حساب الاحتمال، و مهما كانت هذه القضية (رسالة أخيك) واضحة في نظرك فهي في الحقيقة قضية استنتجتها بدليل استقرائي وفقاً للمنهج المتقدم (الخطوات الخمسة).

خطوات الاستدلال:

فالخطوة الأولى: نواجه فيها ظواهر حسية عديدة، من قبيل أن الرسالة تحمل:

آ ـ اسماً يتطابق مع اسم أخيك تماماً.

ب ـ و قد كتبت فيها الحروف جميعاً بنفس الطريقة التي يكتب بها أخوك الألف و الباء الى آخر الحروف.

ج ـ و قد نسقت الكلمات و الفوارق بينها بنفس الطريقة التي اعتادها أخوك.

د ـ و أسلوب التعبير و درجة متانته و مايشتمل عليه من نقاط قوة أو ضعف، يتماثل مع ما تألفه من أساليب التعبير لدى أخيك.

هـ ـ و طريقة الاملاء و بعض الأخطاء الاملائية المتواجدة في الرسالة هي نفس الطريقة، و نفس الأخطاء التي اعتادها أخوك في كتابته.

و ـ المعلومات التي تتحدث عنها الرسالة، هي معلومات يعرفها أخوك عادة.

ع ـ الرسالة تطلب منك أشياء، و تعلن عن آراء، تتوافق تماماً

مع حاجات أخيك و آرائه التي تعرفها عنه ـ هذه هي الظواهر ـ.

الخطوة الثانية: نتساءل هل الرسالة قد أرسلها أخي الي حقاً أو أنها من شخص آخر يحمل نفس الاسم؟

و هنا نجد ـ فوراً ـ أن لديك فرضية صالحة لتفسير و تبرير كل تلك الظواهر، و هي أن تكون هذه الرسالة هي من أخيك حقاً، فاذا كانت من أخيك فمن الطبيعي أن تتوافر كل تلك المعطيات التي لاحظتها في المرة الأولى.

و في الخطوة الثالثة: تطرح على نفسك السؤال التالي:

إذا لم تكن هذه الرسالة من أخي، بل كانت من شخص آخر، فما هي فرصة أن تتواجد فيها كل تلك المعطيات و الخصائص التي لاحظتها في الخطوة الأولى؟

أن هذه الفرصة بحاجة إلى مجموعة كبيرة من الافتراضات، لأننا لكي نحصل على كل تلك المعطيات والخصائص، أي نفترض أن شخصاً آخراً يحمل نفس الاسم، و يشابه أخاك في رسم كل الحروف، و تنسيق الكلمات، و نفس أسلوب التعبير، و مستوى الثقافة اللغوية و الإملائية، و عدد المعلومات و الحاجات و في كثير من الظروف و الملابسات.

و مجموعة هذه الصدف، يعتبر احتمال وجودها ضئيلاً جداً، و كلما ازداد عدد هذه الصدف التي لابد من افتراضها، تضاءل الاحتمال أكثر فأكثر، و ذلك تبعاً لازدياد عدد الصدف التي يفترضها.

و في الخطوة الرابعة، تقول: مادام تواجد كل هذه الظواهر في الرسالة أمراً غير محتمل، الا بدرجة ضئيلة جداً، على افتراض أن الرسالة ليست من أخيك.

ولكن من المرجح بدرجة كبيرة ـ بحكم تواجد هذه الظواهر فعلاً أن تكون الرسالة من أخيك.

و في الخطوة الخامسة: تربط بين الترجيح الذي قررته في الخطوة الرابعة ـ و مؤداه أن الرسالة قد أرسلت من أخيك ـ و بين ضآلة الاحتمال التي قررتها في الخطوة الثالثة، و هي ضآلة احتمال أن تتواجد كل تلك الظواهر في الرسالة بدون أن تكون من أخيك، و يعني الربط بين هاتين الخطوتين: أن درجة ذلك الترجيح تتناسب عكسياً مع ضآلة هذا الاحتمال، فكلما كان هذا الاحتمال أقل درجة، كان ذلك الترجيح أكبر قيمة و أقوى إقناعاً، و إذا لم تكن هناك قرائن عكسية تنفي أن تكون الرسالة من أخيك، فسوف تنتهي من هذه الخطوات الخمس إلى القناعة الكاملة بأن الرسالة من أخيك.

ماهي المعجزة؟

لما كان النبي(ص) صاحب رسالة، يريد أن ينفذ من خلالها الى قلوب و عقول الناس، و يضع الانسان على هدى الله، ولايتحقق له هذا الهدف الا بكسب ايمانهم بصدق نبوته... و الناس لايؤمنون بدون دليل بكونه رسولاً من قبل الله تعالى، فكما لانصدق في حياتنا الاعتيادية شخصاً يدعي تمثيل جهة رسمية مثلاً، مالم يدعم دعواه بالدليل على صدقه.

والدليل الذي يبرهن على صدق النبي(ص) في دعواه هو المعجزة، والمعجزة: هي أن يحدث النبي(ص) تغييراً في الكون، يتحدى بها القوانين الطبيعية التي ثبتت عن طريق الحس و التجربة.

فمن وضع الماء على النار ليكون حاراً فارتفعت درجة الحرارة، يطبق قانوناً طبيعياً، و هو انتقال الحرارة من الجسم الحار الى الجسم البارد.

و أما من ادعى أنه يجعل الماء حاراً بدون الاستعانة بأي طاقة حرارية، فهو بعمله هذا يتحدى قوانين الطبيعة (التي يكشف عنها الحس و التجربة) فاذا أتى النبي(ص) بمعجزة من هذا القبيل كان برهاناً على ارتباطه بالله تعالى و صدقه في دعوى النبوة.

و لذلك سبق النوابغ من العلماء في الحقول العلمية، لايعتبر معجزة، فهو بعمله هذا يتحدى جهل العلماء الآخرين ولا يتحدى القوانين الطبيعية، بل يتحدى زملائه الذين عجزوا عن اكتشاف القانون قبله.

والآن بعد أن عرفنا المقصود من المعجزة: لذلك أصبح من الميسور أن نطبق فكرتنا هذه عن المعجزة على القرآن الكريم الذي أحدث تغييراً هائلاً و ثورة كبرى في حياة الانسان لاتتفق و المألوف أو المجرب من القوانين الكونية للمجتمع.

ولنمهد بالحديث عن معجزة القرآن بالمثال التوضيحي التالي:

فلو أن انساناً تسلم رسالة من أحد أقاربه و كان هذا القريب صبياً يدرس في مدرسة ابتدائية بأحد الأرياف فلاحظ الانسان الذي تسلم الرسالة أنها قد كتبت بلغة حديثة، و بعبارات مركزة و بليغة و بقدرة فنية فائق على تنسيق الأفكار و عرضها بصورة مثيرة.

اذا تسلم الانسان رسالة من هذا القبيل فسوف يستنتج مايلي أن شخصاً مثقفاً، واسع الاطلاع، قوي العبارة، قد أملى

الرسالة على هذا الصبي .

و اذا أردنا أن نحلل هذا الاستنتاج و الاستدلال، نجد أن بالامكان تجزئته الى الخطوات التالية :

الأولى : أن كاتب الرسالة صبي، ريفي، يدرس في مدرسة ابتدائية .

الثانية : الرسالة تتميز بأسلوب بليغ، و درجة كبيرة من الاجادة الفنية و قدرة فائقة على تنسيق الأفكار .

الثالثة : أن الاستقراء يثبت في الحالات المماثلة، أن صبياً بتلك المواصفات التي تقدمت في الخطوة الأولى، لايمكنه أن يصوغ رسالة بالمواصفات التي لوحظت في الخطوة الثانية .

الرابعة : يستنتج من ذلك إذن أن الرسالة من نتاج شخص آخر استطاع ذلك الصبي بشكل و آخر أن يستفيد منه و يسجله في رسالته .

خطوات الاستدلال على معجزة القرآن . القرآن يتحدى البيئة والمجتمع

و هذا مايصدق تماماً على معجزة القرآن و الرسالة التي (٥) أعلنها الرسول(ص) على العالم باسم السماء و ذلك بدراستنا للوضع العالمي والوضع العربي و الوضع الحجازي و حياة النبي(ص) قبل البعثة، ثم قارنا ذلك مما جاء به القرآن الكريم من رسالة عظمى تتحدى كل تلك العوامل و المؤثرات، و ما أحدثه القرآن الكريم من تغيير شامل كامل و بناء لأمة تملك أعظم المقومات و المؤهلات، اذا لاحظنا كل ذلك وجدنا أن القرآن معجزة كبرى لم يكن نتيجة طبيعية لتلك البيئة المنخفضة بكل عواملها و مؤثراتها فوجوده اذاً يتحدى القوانين الطبيعية و يعلو عليها، و عمق تأثيره لاتفسره تلك العوامل و المؤثرات .

و سنوضح المسألة ضمن الخطوات التالية :

الأولى : أن القرآن نزل بتعاليمه على العالم من جزيرة العرب و من مكة بصورة خاصة، والتي كانت من أشد أجزاء العالم تخلفاً في ذلك الحين من الناحية الحضارية و الفكرية و الاجتماعية و السياسية والاقتصادية . وهو قطر لم يمر حتى تأريخياً بمثل الحضارات التي نشأت قبل ذلك بمئات السنين في مواضع أخرى محدودة من تلك الجزيرة، ولم يعرف أي تجربة اجتماعية متكاملة،

ولم ينل من ثقافة عصره شيئاً يذكر ولم ينعكس على أدبه وشعره شيء ملحوظ من أفكارالعالم وتياراته الثقافية وقتئذ .

وكان منغمساً من الناحية العقائدية في فوضى الشرك والوثنية .

مفككاً اجتماعياً، تسيطر عليه عقلية العشيرة، بكل ماتحفل من تناقضات وألوان الغزو والصراع الرخيص . ولم تشهد المنطقة أي شكل من أشكال الحكم . ولم يكن وضع القوى المنتجة والظروف الاقتصادية في ذلك الجزء من العالم يتغير عن أكثر بقاع العالم المتخلف حينذاك .

وحتى القراءة والكتابة - بوصفها أبسط أشكال الثقافة -كانت حالة نادرة نسبياً، اذ كان المجتمع أمياً على العموم(هو الذى بعث فى الأميين رسولاًمنهم)الجمعة ٢ .

والمعروف أن الكتاب يمثل مرآة لثقافة عصره ومجتمعه فهو يعبر عن مستوى من مستويات الثقافة في ذلك المجتمع، أما أن يظفر الكتاب طفرة هائلة، ويأتي بدون سابق مقدمات وبلا إرهاصات، وإنما تقلبها رأساًعلى عقب، فهذا مالا يتفق مع طبيعة الأشياء وهذا ماوقع للقرآن، فقد نزل في أكثر المناطق تأخراً وبدائية، وضيق أفق وبعداً عن التيارات الفلسفية والعلمية ليفاجيء العالم بثقافة جديدة . وهكذا نعرف أن اختيار البيئة، والمجتمع كان هو التحدى الأول للقوانين الطبيعية، التى تقضى أن تولد الثقافة الجديدة في أرقى البيئات من الناحية الفكرية والاجتماعية .

تحدى شخصيةالنبى(ص) :

الثاني : أن القرآن بشر به النبى (ص) وأعلنه على العالم فرد من أفراد المجتمع المكى، فلم يكن قبل البعثة يقرأ ويكتب، ولم يتلق أي تعليم منظم وغير منظم (وماكنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون) عنكبوت ٤٨ ، وقد عاش بين قومه أربعين سنة فلم يؤثر عنه - طيلة هذه المدة - محاولة تعلم أو إثارة من علم أو أدب، ودون أن تبرز فى حياته أي بذورعملية أو اتجاهات جادة نحو عملية التغيير الكبرى التى طلع بها على العالم (قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ولاأدريكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون)يونس ١٥ .

ولم يتيسر للرسول (ص) بحكم عدم تعلمه للقراءة والكتابة أن يقرأ شيئاً من الصحف الدينية لليهودية والمسيحية .

اليهودى والمسيحى للوحظ ذلك، ففى بيئة ساذجة ومنقطعة الصلة بمصادر الفكر اليهودي والمسيحى ومعقدة ضدها، لايمكن أن تمر محاولة من هذا القبيل دون أن تلفت الأنظار.

وهذا يعتبر تحدياً آخَرَ من القرآن للقوانين الطبيعية.

فهل رأيت فى مجرى القوانين الطبيعية شخصاً جاهلاًبالطب مثلاً لم يدرس عنه شيئاً يتقدم بكتاب فى الطب يبهر عقول الأطباء، بما يضم من أسرار العلم وآياته ؟وهل رأيت فى مجراها شخصاً لايحسن أن يكتب فى لغةما، ولايجيد شيئاً من علومها يأتى بالرائعة التاريخية فى حياة تلك اللغة، حتى يتصور الناس أنه ساحر!.

ثالثاً: ان القرآن امتد بنظره إلى الغيب المجهول فى الماضى البعيد، وفى المستقبل، فقد تحدث من خلال قصصه حديث من شاهد الأحداث كلها وراقب جريانها، وعاش فى عصرها بين أصحابها، قال تعالى: (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليک ماكنت تعلمها أنت ولا قومک من قبل) هود ۴۹.

(وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا الى موسى الأمر و ماكنت من الشاهدين ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاوياً فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين)و (ذلک من أنباء الغيب نوحيه إليک و ماكنت لديهم إذ يختصمون)آل عمران ۴۴.

فكيف يمكن بحكم القوانين الطبيعية أن يتحدث شخص فى كتاب عن أحداث أمم فى الماضى السحيق لم يعشها ولم يعاصرها؟.

وكما كان القرآن محيطاً بالماضى كذلک كان محيطاًبالمستقبل من قبيل أخبار القرآن بانتصار الروم على الفرس فى بضع سنين: (غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين) الروم۵-۳، والبضع من ثلاث الى تسع، والنصر تحقق فى السنة السابعة.

ومن أوائل السور المنزلة فى مكة المكرمة (تبت يدا أبى لهب وتب، ما أغنى عنه ماله وماكسب، سيصلى ناراً ذات لهب) سمع أبو لهب السورة، وعاش بعدسماعه إياها عشر سنوات، لو قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، نفاقاً ورياءً بلسانه دون قلبه لشكک بالوحى وأبطله، لو كان القرآن من عند محمد(ص) لما قال أمراً غيبياًلايدرى ماسيكون شأنه فى المستقبل، أنه من عند الله قطعاً، وهو علام الغيوب، لقد علم أن أبا لهب لن يقول الشهادة ولو رياءً ونفاقاً وكذباً، ولن يحرج الدعوةورسول الله أبداً.

فى سورة آل عمران: ۱۲/۳: (قل للذين كفرواستغلبون).

وقد غلبوا.

وفى سورة الأنفال: ۷/۸: (و إذ يعدكم الله أحدى الطائفتين أنها لكم) وعد عجيب بالنصر فى بدر الكبرى، والمسلمون قلة من حيث العدد، ومع ذلک ذكر النصرقبل المعركة، وكان كما أخبر رسول الله (ص) وقد نسب الوعد الى الله تعالى.

وفى سورة القمر: ۴۵/۵۴، وهى من السور المكية (سيهزم الجمع ويولون الدبر) وعلى الرغم من الاضطهاد والتعذيب والتهجير فى الفترة المكية، جاءت هذه البشرى.

وفى سورة الحجر: ۹/۱۵(إنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون) وهو محفوظ من التحريف والزيادة والنقصان.

وفى سورة ص ۸۷/۳۸ و ۸۸ وهى مكية (إن هو إلا ذكرللعالمين، ولتعلمن نبأه بعد حين) وماهى إلا سنوات حتى صار الاسلام نبؤه العظيم فى العالم بأسره.

وأخيراً فى سورة النساء: ۱۵۷/۴ فى معرض الحديث عن المسيح(ع) (وماقتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) (ومافتلوه يقيناً) نرى أن الأناجيل القبطية المكتشفة تذكر بوضوح أن المسيح لم يصلب، و إنما صلب شبيه له، وهذه الأناجيل غيرت تأريخ السنوات الأولى للمسيحية، لأن بعضها كأنجيل توماس مثلاً يرجع الى منتصف القرن الميلادى الأول، أى أنه يسبق أول الأناجيل المعروفةبعشر سنوات على الأقل.

وهكذا نجد القرآن يتحدى الغيب فى الماضى والمستقبل، ويتحدث بلغة المطمئن الواثق الذى لايخالجه شک فيما يقول وهذا مالايقدر عليه إنسان وفقاللقوانين الطبيعية.

ومما يبهر الملاحظ أن القصص فى القرآن، لم تجىء مجرد استنساخ لما جاء فى كتب العهدين، فالاستنساخ يمثل دوراً سلبياً فقط، دور الأخذ والعطاء، بينما القرآن فى عرض القصة إيجابى فإنه يصحح ويعدل ويفصل القصة مما ألصقت بها من ملابسات لاتتفق مع فطرةالتوحيد والعقل المستنير والرؤية الدينية السليمة.

السلام عليكم و رحمة الله و بركاته

الهوامش:

(۱) للمزيد راجع المحاضرة الثالثة من كتاب مقدمات في التفسير الموضوعي للقرآن للسيد الشهيد الصدر.

(۲) اعتمدنا في هذه الدراسة على المفكر الإسلامي الشهيد محمد باقر الصدر في كتابه الأسس المنطقية للاستقراء.

(۳) راجع للمزيد كتاب الأسس المنطقية للاستقراء، و كتاب المرسل و الرسول و الرسالة/ محمدباقر الصدر.

(۴) نفس المصدر السابق.

(۵) للمزيد راجع كتاب علوم القرآن- محمدباقر الصدر- و الحكيم.